



الذاكرة الشعبية

قراءة اجتماعية لمصادر الوعي التاريخي المحلي
والمنتج الثقافي في الحياة اليومية للمجتمع السعودي



د. عبدالرحمن بن عبدالله الشقير

التنافس في المجالس

من أجل الاعتراف بالمكانة الاجتماعية

يستخدم الإنسان جسده ومظهره العام بوصفه رأس ماله الاجتماعي من أجل الاستفادة منه في المجتمع وفي المجالس الرسمية للاعتراف بمكانته الاجتماعية، ونظراً لأن هذه الفكرة موجودة بين كثير من المتطلعين للوصول للنخب، فقد كانت المجالس الرسمية مسرحاً للتنافس على الحظوة بالجلوس في موقع قريب من صدر المجلس. ويحلل هذا الموضوع هذه الظاهرة المتخفية في الحياة اليومية والتحويلات التي طرأت عليها عبر الأجيال.

الجسد في الدراسات الاجتماعية

يصنف إرفنج جوفمان، وهو من رواد دراسات الجسد، الإشارات التواصلية عبر الجسد بأنها تكمن في اللبس، ومستوى الصوت، وملامح الوجه، وعلامات حركة اليد والأصابع، والعواطف...؛ وهذا التعريف الشامل خضع لقواعد السلوك الاجتماعي وآدابه منذ القدم، واستقر على آداب وسلوك وإيماءات إيجابية متفق عليها، وإيماءات سلبية مرفوضة، وتمثل اعتداء على الآخرين، ومن يخالفها يكون قد ارتكب خطأ اجتماعياً، ومن أهمها أحقية الجلوس في المكان المخصص للضيوف بضمانة تقاليد المجتمع، وهذا الخطأ يخضع لتقييم الحاضرين، وعادة يعاقب من يرتكب هذا الخطأ بنصحه، أو توبيخه، أو التقليل من سمعته، أو نبذه، وتتفاوت النظرة لهذه القواعد بحسب الطبقة الاجتماعية.

درس إرفنج جوفمان تأثير إدارة الجسد في المجالس على التفاعل

الاجتماعي في كتاب «تقديم الذات في الحياة اليومية»، وذكر أنه على الإنسان أن يكون حساساً بالموقف الذي هو فيه، ومنتبهاً للحاضرين، ومستعداً لفهم الإيحاءات؛ لأن أحدهم سينبئه بأنه في وضع سلوكي غير ملائم، وأن عليه تغييره بسرعة. ولذلك إن وقع في سلوك جسدي خاطئ ومكشوف أو صوت مخل بالآداب العامة؛ فإن أمامه أن يبرر موقفه فوراً، أو يعتذر، أو يقلب الموقف إلى ضحك، لأنه يمرّ بعد رد الفعل بعملية تقييم للموقف من قبل الحاضرين، ويبدو أن هذا التحسس ناشئ من ترسبات تاريخية فرضتها العادات القديمة، واكتسبت رسوخها من مراعاتها عبر الزمن.

وقد طرأت تحولات كبرى على فكرة التنافس من أجل الجلوس في مكان مميز يحقق الاعتراف بالمكانة الاجتماعية، وذلك لأن صدر المجلس لم يعد من الموارد الشحيحة التي يتنافس عليها الناس؛ نظراً لأن وعي الناس قد ارتفع، ولم يعد مكان الجلوس معياراً للمكانة الاجتماعية، ولوضوح الصورة الذهنية عن كثير من المتنافسين، وعدم أهلية كثير منهم؛ إضافة إلى وجود أماكن ضيافة مختلفة الآن، مثل توزيع الجلسات على نظام الفنادق، أو وجود أكثر من مجلس في المكان الواحد.

التنظيم الدبلوماسي

يحفل تاريخ الدبلوماسية بصراع مماثل في البروتوكول، اتفق على تسميته بمصطلح «أحقية الجلوس» ضمن آداب المائدة والحفلات، وقد نشأ هذا بعد سجل طويل من ادعاءات الأحقية مستخدمين معايير تخدم أحقيتهم، مثل: أسبقية التعيين، وأهمية الدولة التي يمثلها الدبلوماسي، وقد أثمرت عن تراث دبلوماسي يحدد قواعد السلوك في اللقاءات والمجالس العامة، وأن تجاهل الالتزام بها قد يضر بالعلاقات الدبلوماسية، لذلك من حق الدول أن تتقيد بالبروتوكول الدبلوماسي، وتجاهل الشخص إذا أرادت.

أما في المجتمع السعودي فتعتبر القبيلة والأسرة وأعيان البلد والمكانة

الدينية، وفيما بعد دخل المنصب الحكومي الكبير، هي الضامن للضبط الاجتماعي في إدارة التشریفات وقواعد السلوك، ويحفل التراث الشعبي بأشعار وأمثال كثيرة تحدد أحقية الجلوس ومتطلباته، وتنتقد ظاهرة من ينصب نفسه لمكان لا يستحقه، وكانت الأخلاق وقيم الكرم والمروءة والنبيل والعلم هي المحدد الرئيس للوجاهة.

صدر المجلس كرأس مال رمزي

تحتل ظاهرة «صدر المجلس» أهمية كبيرة في الذهنية العربية وفي الذاكرة الشعبية، فهو يرمز للمكانات الاجتماعية، واعتراف بالوجاهة، ولكنه أيضاً ساحة صراع خفي ناعم، ولأن الصراع على «صدر المجلس» وأماكن الجلوس التي تليه يمثل أحد المؤشرات التي يمكن أن يقاس بها الحراك الاجتماعي في المجتمع؛ لعلاقته بتقدير الذات وتحقيق الهوية الذاتية والحاجة إلى الاعتراف الاجتماعي.

إن الصراع والتنافس في المجالس صورة مصغرة للصراع والتنافس في باقي مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والإدارية، يقول إكسل هونيت، وهو من أبرز علماء الاجتماع المعاصرين الذين درسوا ظاهرة الاعتراف بالمكانة، في كتابه: «الصراع من أجل الاعتراف: القواعد الأخلاقية للمآزم الاجتماعية» (2014م): «إن أشكال الحياة الإنسانية قد انطبعت كلياً بصفة تجعل الفرد فقط، عبر الاعتراف المتبادل، عضواً في الحياة الاجتماعية، وتالياً في علاقة إيجابية مع ذاته».

تعد المجالس الرسمية في المجتمع السعودي من أعلى درجات الضبط الاجتماعي، من خلال تحقيقها عبر منظومة من التعليمات الصارمة للصغير قبل الكبير، وجميعها تتعلق بكيفية إدارة الجسد بما فيه من صوت ونظرات وسلوك وهندسة اجتماعية للجسد؛ وذلك لأن المجالس تصمم معمارياً من أجل استقبال الضيوف، فتزيد العناية بها، ومن ثم صار لها تنظيم أحقية الجلوس. وينقسم المجلس إلى ثلاثة أقسام ذات رمزية اجتماعية، وهي:

«صدر المجلس»، ويستحوذ على هذا المكان فئة مستقرة، وهم: الأمراء والأعيان وكبار السن، وشيوخ القبائل، ورجال الدين، ورجال الدولة، ورجال المال المشاهير. والفئة الثانية متغيرة، وترتبط وجاهتهم بمكانة عليا ولكنها مؤقتة، مثل: الضيوف الجدد، وكبار الشخصيات في الحكومة والقطاع الخاص. والفئة الثالثة تحتل صدر المجلس لمناسبات خاصة، وهو المقام الحفل من أجله، مثل: المتزوج، أو المتخرج من جامعة، أو العائد من سفر طويل.

ثم يأتي بعد «صدر المجلس» عدد محدود من الكراسي يتنافس عليها عدد كبير من الأشخاص الذين يتسمون بأن لديهم تطلعات لأن يكونوا في مكان مجاور لصدر المجلس، وغالباً ما يمتلكون مناصب مرموقة أو يكونون قضاة أو مالين. وهذه لا تخضع غالباً للتنظيم كما يخضع «صدر المجلس»، ولكنها أعلى درجة اجتماعياً من بقية الجلسات الأخرى، ولوجود أشخاص مدعويين منحوا أنفسهم الحق بها، ومن هنا تنشأ مسألة «التزاحم» على الجلسات الملاصقة لصدر المجلس.

القسم الثالث يتمثل في بقية الجلسات البعيدة عن صدر المجلس، وهي تتساوى في الأهمية المنخفضة، ولكنها تقوم بأدوار التقييم ومنح الاعتراف بالآخرين، ولولا حضورهم لما حصل أي تنافس على صدر المجلس، كما سيأتي.

صدر المجلس في الذاكرة الشعبية

تعد المجالس أيضاً فضاء مغلقاً لتوزيع المكانات الاجتماعية، أبرزه ما يسمى «صدر المجلس»، وسمي في التراث العربي والشعبي صدرًا لتصدره المكانة العليا، وهو المكان المخصص للنخب وعلية الحضور والضيوف، وتقل أهمية الشخص بحسب بعده عن صدر المجلس. والمكان الأقل قدراً في المجالس، خاصة الشعبية القديمة وذات الجلسات الأرضية، هو المجاور لباب الدخول والخروج؛ حيث كانت توضع بجواره الأحذية قبل الدخول غالباً. وبناء

على هذه التقاليد المترسخة في الذاكرة الشعبية، صارت المجالس الرسمية مجالاً للتنافس بل الصراع أحياناً من أجل الحصول على الاعتراف بمكانة الشخص استناداً على قدرته على الحصول على مكان جلوس يرى أنه يليق به.

يتنافس الأشخاص المتطلعون في الخطوة بالجلوس قريباً من المقدمة، وخاصة من حققوا مكانة اجتماعية واقتصادية لا بأس بها، ولكنهم بحاجة إلى الاعتراف الاجتماعي بمكانتهم من قبل فئتين في المجلس، هما: فئة الكبار الذين يتصدرون المجلس، والفئة الشعبية الكثيرة العدد، التي تعد بمثابة الجماهير التي يتحفز اللاعبون لإبهارها، فهي التي تمنح الاعتراف الخفي من خلال إعجابها بالفرد، أو سحبه منه. ومن هنا تعد إدارة الجسد أحد أهم أشكال التواصل الفعال في المجالس.

هذه الظاهرة تعكس بوضوح الحالة الذكورية، فهي ليست ظاهرة في المجالس النسائية، وربما يعود السبب إلى أن المجلس يمثل التنافس في الحياة العامة المصغرة، الذي يهيمن عليه الرجال، والمتمثل في المكانة وتقدير الذات والاستحواذ على المناصب والمال والشهرة، وليس لدى النساء ما ينافسن من أجله آنذاك، إلا بجماليات الجسد.

الاستهلاك المظهري أمام الاستهلاك الثقافي

يستعين اللاعبون في المنافسة على صدر المجلس بإستراتيجيات تتمثل غالباً في الاستهلاك المظهري، الذي يتركز غالباً في لبس البشت المطرز بالذهب، والماركات العالمية في الساعة والحذاء مثلاً، والأناقة في المظهر العام، ورائحة العطر أو البخور الفاخر، وقد تستخدم أدوات استهلاكية مظهرية تعزز من مكانة الشخص مثل نوع سيارته التي قدم بها. ويبدو أن هذا الاستهلاك المظهري يحقق قبولاً واسعاً في المجتمعات غير الناضجة، التي تستخدم مقاييس ساذجة ومظهرية لتقييم الأشخاص، فالناس البسطاء يقدسون المظاهر والمناصب والثروة، ويبهروهم المظهر الرسمي الباذخ، حتى ولو تأكدوا أنها بيد أناس لن يفيدوهم بشيء.

والبديل للاستهلاك المظهري هو «الاستهلاك الثقافي»، فهو أفضل ما يمكن أن يستهلكه الشخص لتحقيق الاعتراف بمكانته الاجتماعية، ويتمثل في لباقتة، وامتلاكه لتنوع معرفي وثقافي وأدبي يمكنه من حسن تقديم ذاته في المجتمع، وقدرته على توجيهه الاهتمام للحضور مهما اختلفت مكاناتهم، وعدم تجاهله لأحد، وهذه مهام أخلاقية وفكرية نادرة أمام كثافة «الاستهلاك المظهري». فالثقافة واحترام قواعد السلوك وآدابها هي المخزون الأخلاقي والاجتماعي الذي لا ينضب، ويعدّ مؤشراً لقياس مستوى التحضر في المجتمع.

أزمة التجانس بين المركز الاجتماعي والمكانة الاجتماعية

يقصد بالمركز الاجتماعي: حصول الشخص على مؤشرات عليا في تحقيق الثروة أو المنصب والشهرة، ويقصد بالمكانة الاجتماعية: المؤشرات التاريخية والثقافية للأسرة. ويكون التجانس الكبير إذا توافر للشخص مكانة اجتماعية عليا ومركز اجتماعي رفيع، أما إذا امتلك مركزاً اجتماعياً عالياً ومكانة اجتماعية منخفضة، أو العكس، فإنه يدخل في أزمة مع المجتمع. ومن معايير المجتمع المتوارثة أن المكانة الاجتماعية لها طابع الديمومة والثبات عبر الأجيال، بوصفها منتجاً جماعياً ثقافياً تراكمياً، في حين أن المركز الاجتماعي يكون مؤقتاً، ومرتبطاً بوجود المال أو المنصب أو الشهرة، بوصفه منتجاً فردياً مادياً. ومن ثم فكلُّ من المكانة والمركز سلاح ذو حدين، فمن يستخدم مكانته الاجتماعية وهو ذو مركز اجتماعي منخفض، فإنه لا يُعترف به غالباً، سواء علنياً أو ضمناً لأنه يقتات من تراث أسرته، ويسعى لفرض أهميتها في المجتمع. ومن يستخدم مركزه الاجتماعي وهو ذو مكانة منخفضة، فإنه سيشعر في ذاته بهذا النقص، ويحاول أن يهاجم فكرة المكانة المستمدة من التاريخ لتحطيمها كمعيار يؤذيه، ويسعى لتوجيه موضوعات المجالس على الرفع من أهمية ما يتميز فيه كالمال والمنصب والشهرة.

أزمة الأحقية

كثيراً ما تتجلى أزمة الأحقية بالجلسات القريبة من صدر المجلس عندما تجتمع نخب من مجالات مختلفة، مثل اجتماع النخب الدينية والاقتصادية والإدارية، فهذه إن اجتمعت في مناسبة خاصة يكون خطأ دبلوماسياً من المضيف؛ إذ قد يكون عند بعض الأفراد ضيفٌ كبير المقام، فيجتهد المضيف ويوجه الدعوة لشخصيات كبيرة أخرى، وقد يكون من بينها شخصيات أكبر قدراً من الضيف نفسه، مما يوقع ضيفه الأساس في حرج أو يقلل من هيبته حضوره. وإن كانت مناسبة عامة فإنها تدار غالباً بأسلوب توزيع الجلسات الذي لا يجعل في المكان صدرا للمجلس، أو تكتب أسماء المدعوين لأهم الجلسات.

من هذا التنظيم الدبلوماسي البسيط تنشأ بقية الأزمات، ومن أبرزها: حضور أشخاص لا يعترفون بهذا التوزيع، فيجلسون حيثما يرون مكانتهم، وقد يضطر البعض بتفريغ موظف مختص لحماية الجلسات أو تنبيه الضيوف، وغالباً ما تنتهي بمصالحة، وليس بفرض تنظيم.

قد يعتمد البعض فكرة أسبقية الوصول لمنح نفسه أحقية الجلوس، لضمان عدم إزاحته. كما قد يحضر أحد النخب للمناسبة متأخراً، وبعد أن أخذ الجميع أماكنهم، فيكون أمامه خيارات مفتوحة تتحدد بمستوى تقييمه من قبل المضيف أو الحضور، من أبرزها أن يستند إلى قوة هيئته المالية أو الإدارية، أو يستند إلى رصيده الأخلاقي الذي يجعل من المروءة إفساح المجال له لأخذ مكانة متقدمة. وإن لم يتمكن من تدبير موقع جلوس يليق بمكانته؛ فإنه غالباً يعز عليه الجلوس في مكان منخفض قد يسجل عليه اجتماعياً، لذلك يضطر البعض إلى أن يسلم على الجميع ثم يغادر.

قد يشارك الحضور في تزييف الوعي بالأحقية في صدر المجلس، وذلك لانخفاض معايير التقييم في بعض الحالات؛ إذ يلحظ أن تقييمهم لرجال المال أعلى من تقييمهم للعلم، لذلك يقدمون بحفاوة رجال المال على العلماء في العلوم الطبية والتطبيقية والعلوم البحتة والعلوم الاجتماعية والإنسانية. كما أن

زمن الصحوة شهد استحواداً كبيراً لشباب الصحوة على صدر المجالس، وصاروا يقدمون بوصفهم يحملون علماً شرعياً سيتحدثون في المجلس عنه، في طريقة عرض تتضمن اعترافاً صامتاً بجهل الحضور بالعلوم الشرعية إلى درجة عجزهم عن تقييم علم المتحدث.

إستراتيجيات المتصارعين

تتركز إستراتيجيات المتصارعين على هدف رئيس وآخر فرعي؛ الهدف الرئيس هو أن يكون في مكان قريب من الضيف الرئيس ومحل وقوع نظره عليه، وقد يشارك بتعزيز وتأييد آراء الضيف المطروحة، ويثني عليها، وهذا يرفع نسبة حظوته، أو فرصته لتقديم ذاته، ومن ثمّ بقاءه في ذاكرته، التي قد يحتاجها يوماً لترشيحه لمنصب أو تمكينه من فرصة إدارية أو مالية. كما أنها فرصة لبناء علاقات جديدة أو تجديد علاقات قديمة أو توثيق علاقات ثانوية؛ إذ تتيح المجالس صفة الودية، وتمنح وقتاً أطول للحضور، ومساحة حرة للحوار الثنائي بين المتجاورين.

أما الهدف الفرعي فهو حصول المتنافسين على صدر المجلس على اعتراف الحضور، وهم يمثلون الشعبية والجماهيرية التي تنقل ما تشاهده وتقيمه وفي ضوء ذلك تتشكل سمعة الأشخاص.

دور الحضور

تؤكد المنافسة على أحقية الحظوة بمكان مميز في المجلس إذا زاد عدد الحضور، فكثرة الحضور يمثل الجمهور في المسرح التمثيلي الذي يمنح التقييم للمتنافسين على صدر المجلس أو المجاور له، وتكمن أهمية الحضور في أنه لولا وجودهم لما حصل الصراع؛ وذلك لأن النخب تتنازل بأريحية عن أماكنها في الجلسات المغلقة والمحدودة العدد والودية.

يمثل الحضور في المجالس قوة صامته لتقييم النخب ومنح الاعتراف

الاجتماعي، فهم مثل الحضور في مدرجات المسرح الذي يقيم أداء الممثلين، ويعترف بأداء البطل، ومثل جماهير المباريات الذين يشعلون الحماسة بين اللاعبين لتحديد بطل المباراة.

أخيراً

إذن تنشأ أسباب ظاهرة الصراع على «صدر المجلس» من تقدير الذات واحترامها، التي تواجه تهديدات بفقدان المكانة والتعرض للإهانة. ومن ثمّ ينبغي أن تكون المنافسة على صدر المجلس حافزا على الإنجاز والدافعية للنجاح، وليس مجرد احتلال أجوف لمقاعد الغير. ويبقى الاستهلاك الثقافي المتمثل في إدارة الجسد اليوم هي اللوحة الفنية التي يقدمها الإنسان في المجالس في الحياة اليومية، وجزءاً من هويته، ومن أهم محددات مكانته الاجتماعية والاقتصادية.